سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الثاني

بشارات أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

الحديث الثاني

بشارات أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الثاني
بشارات أهل الكتاب
بالنبي محمد ﷺ

الدكتور
الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة
أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى
صدقة عن روح أبيهم بهاء الدين الجمل
وأخيهم فؤاد بهاء الجمل رحمهما الله تعالى

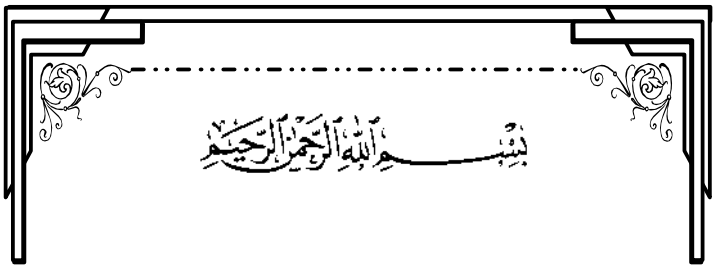

المقدّمة

اللهم إنّا نحمدك حمدًا يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**...

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحًا يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسبًا لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثرًا في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

وبعد أن يسّر الله لي شرح جملة من الأحاديث الشريفة التي تتناول مواضيع متنوّعة يحتاجها الناس في حياتهم، رأيت أن أنحو هذا النحو في سيرة رسول الله ﷺ، فأقوم بشرح السيرة النبوية المطهّرة من خلال شرح الأحاديث الشريفة المتعلقة بها بعون الله تعالى.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «**في ظلال السّيرة**».

واللّهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه

الدكتور الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

في طرابلس ـ لبنان

بتاريخ ١٣ /جمادى الآخرة/ ١٤٣٧هـ

الموافق له ٢٢/آذار/ ٢٠١٦م

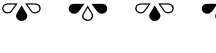

متن الحديث

عنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلاَمَةَ بْنِ وَقْشٍ ـ وَكَانَ سَلَمَةُ مِن أَصْحَابُ بَدْرٍ ـ قَالَ: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ. قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيّ بُرْدَةٌ لِي، مُضْطَجِعٌ فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْقِيَامَةَ وَالْبَعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنّةَ وَالنّارَ. قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمِ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لاَ يَرَوْنَ أَنّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَك يَا فُلَانُ أَوَتَرَى هَذَا كَائِنًا: أَنّ النّاس يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلَى دَارٍ فِيهَا جَنّةٌ وَنَارٌ، يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالّذِي يَحْلِفُ بِهِ، وَيَوَدّ أَنّ لَهُ بِحَظّهِ مِنْ تِلْكَ النّارِ أَعْظَمُ تَنّورٍ فِي الدّارِ، يَحْمُونَهُ ثُمّ يُدْخِلُونَهُ إيّاهُ فَيُطيّنونَهُ عَلَيْهِ، وأَنْ يَنْجُوَ مِنْ

تِلْكَ النّارِ غَدًا. فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَك يَا فُلَانُ، فَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ ـ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى مَكّةَ وَالْيَمَنِ. فَقَالُوا: وَمَتَى نرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إلَيّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ. قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاَللّهِ مَا ذَهَبَ اللّيْلُ وَالنّهَارُ حَتّى بَعَثَ اللّهُ مُحَمّدًا رَسُولَهُ ﷺ، وَهُوَ حَيّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَك يَا فُلَانُ أَلَسْت الّذِي قُلْت لَنَا فِيهِ مَا قُلْت! قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لَيْسَ بِهِ»[1].

(١) رواه ابن إسحق، وصحّحه الألباني في صحيح السيرة النبوية (٥٨/١).

شرح الحديث

هذه قصة عظيمة تتحدّث عن علم أهل الكتاب من اليهود بصفات نبينا محمد ﷺ قبل ولادته.

وراوي هذه القصّة هو صحابي جليل من الأنصار، وهو سلمة بن سلامة بن وقش الأشهلي، أي: من بني عبد الأشهل، وبنو عبد الأشهل هم بطن من بطون قبيلة الأوس.

والقصة جرت مع أحد اليهود من سكان المدينة، والظاهر أن هذا اليهودي كان حليفًا لبني عبد الأشهل، ويسكن في جوارهم.

وقبل أن أستكمل شرح ما جرى في هذه القصة أودّ أن أبيّن: أن الأنصار في المدينة كانوا يتشكّلون من قبيلتين هما: الأوس والخزرج، ولكل قبيلة منهما بطون، أي: فروع.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة كان سكانها يتألفون من ثلاثة أقسام:

١ ـ المسلمون، وهم الذين دخلوا في الإسلام قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، وهم من قبيلتي الأوس والخزرج، وعُرفوا بعد ذلك بالأنصار.

٢ ـ المشركون، وهم أيضًا من قبيلتي الأوس والخزرج، إلا أنهم بقوا على وثنيّتهم قبل أن يدخلوا في الإسلام.

٣ ـ اليهود، وكانوا يتفرّعون من ثلاث قبائل يهودية، وهي: بنو قينقاع، وبنو النّضير، وبنو قُريظة.

والأوس والخزرج قبيلتان عربيّتان، أصلهما من اليمن، ثم نزحتا إلى المدينة المنوّرة. وأما اليهود فأصلهم من بلاد الشام ثم نزحوا إلى المدينة واستوطنوها بعد استيطان العرب فيها.

والسبب الذي دفع القبائل العربية إلى الهجرة من اليمن كان اقتصاديًا. وأما السبب الذي دفع اليهود إلى قدوم المدينة فكان دينيًا.

وتفصيل ذلك: أن القبائل العربية التي سكنت اليمن كانت تنتسب إلى أب واحد اسمه: سبأ بن يشجب، فسمّيت قبائلهم باسمه. وكانوا يسكنون ببلدة مأْرِب باليمن، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء. وكانت

أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سداً، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم، وعُرف هذا السدّ بسدّ مأرِب. وقد روى المؤرّخون أنّهم روَوْا به مزارعهم وبساتينهم حتى غرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الوفرة والحسن. وذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكتل، وهو الذي تجتنى فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف، لكثرته ونضجه واستوائه. إلا أنهم لم يشكروا الله تعالى على هذه النعم العظيمة، حتى سلبها الله سبحانه وتعالى منهم. فلما عصوا أمر الله تعالى وبطروا معيشتهم أرسل سبحانه عليهم سيل العرم، أي أرسل عليهم السيل الشديد المدمّر، فانهار سدّهم واجتاحت المياه بيوتهم ومزارعهم فأفسدتها، حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة إلى مواطن جديدة. وتفرقوا في البلاد لا يلوون على شيء، حتى ضرب بهم المثل في التفرق حيث قيل: «تفرقوا أيادي سبأ»، وهو مثل يضرب لمن تفرّق شملهم تفرقاً لا اجتماع لهم بعده[1].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥٠٧/٦) والوسيط لسيد طنطاوي (٣٤٦٨/١).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[1] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[2].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرّق في البلاد أيدي سبأ، شذر مَذرَ»[3]. ثم قال في موضع آخر: «فنزلت طوائف منهم الحجاز، ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة، ومنهم من نزل المدينة المنورة (وهم الأوس والخزرج)، فكانوا أول من سكنها، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير فحالفوا

---

(١) أي: أُكل مُر بشعٍ.

(٢) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٥٠٤).

الأوس والخزرج وأقاموا عندهم. ونزلت طائفة أخرى منهم الشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعد، وهم: غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم»[1].

هذا بالنسبة لهجرة العرب إلى المدينة، وأما بالنسبة لليهود فكان دافعهم إلى الهجرة أمراً دينياً بحتاً.

وتفصيل ذلك فيما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ قال: وَحَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَ: قَالَ لِي: هَلْ تَدْرِي عَمّ كَانَ إسْلَامُ ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ وَأُسَيْدِ بْنِ سَعْيَةَ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ، نَفَرٌ مِنْ بَنِي هَدَلْ إخْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ، كَانُوا مَعَهُمْ فِي جَاهِلِيّتِهِمْ ثُمّ كَانُوا سَادَاتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ؟ قُلْت: لَا. قَالَ: فَإِنّ رَجُلًا مِنْ يَهُودَ مِنْ أَهْلِ الشّامِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيّبَانِ قَدِمَ عَلَيْنَا قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ بِسِنِينَ فَحَلّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، لَا وَاَللّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطّ لَا يُصَلّي الْخَمْسَ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَأَقَامَ عِنْدَنَا. فَكُنّا إذَا قَحَطَ عَنّا الْمَطَرُ قُلْنَا لَهُ: اُخْرُجْ يَا ابْنَ الْهَيّبَانِ فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا وَاَللّهِ حَتّى تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيْ مَخْرَجِكُمْ صَدَقَةً،

(١) انظر البداية والنهاية (٢/١٩٤).

فَنَقُولُ لَهُ: كَمْ؟ فَيَقُولُ: صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ مُدّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ. قَالَ: فَنُخْرِجُهَا، ثُمّ يَخْرُجُ بِنَا إِلَى ظَاهِرِ حَرّتِنَا، فَيَسْتَسْقِي اللّهَ لَنَا. فَوَاَللّهِ مَا يَبْرَحُ مَجْلِسَهُ حَتّى تَمُرّ السّحَابَةُ وَنُسْقَى، قد فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرّةٍ وَلَا مَرّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ. قَالَ ثُمّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ عِنْدَنَا. فَلَمّا عَرَفَ أَنّهُ مَيّتٌ قَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ؟ قُلْنَا: إنّك أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنّي إنّمَا قَدِمْت هَذِهِ الْبَلْدَةَ أَتَوَكّفُ خُرُوجَ نَبِيّ قَدْ أَظَلّ زَمَانُهُ، وَهَذِهِ الْبَلْدَةُ مُهَاجَرُهُ، فَكُنْت أَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ فَأَتّبِعُهُ، وَقَدْ أَظَلّكُمْ زَمَانُهُ فَلَا تُسْبَقُنّ إلَيْهِ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ» الأثر[1].

فهذه الرّواية بيّنت سبب هجرة اليهود إلى المدينة، وهو ما جرى مع ابن الهيّبان، وهو أحد صالحي اليهود ومؤمنيهم، فقد هاجر من بلاد الشام إلى المدينة المنوّرة واستقر فيها بجوار القبائل العربية التي سبقته إلى سكنى المدينة. وظهر من صلاح هذا الرجل: أن جيرانه من

(١) رواه ابن إسحق، وصحّحه الألباني في صحيح السيرة النبوية (٦٠/١).

العرب كانوا إذا أجدبَت بلادهم وتأخّر عليهم هطولُ المطر، خرجوا معه إلى الصحراء وقدّموه بين أيديهم للدعاء والتضرّع إلى الله تعالى ليكشف عنهم ما هم فيه، فتستجاب دعوتُه في مكانه، وينزل عليهم المطر قبل أن يرجعوا إلى مساكنهم. فلما نزل به الموت دعا جماعته من اليهود وأراد أن يوصيهم. فبدأ بسؤالهم عن السبب الذي حمله على ترك بلاد الشام، وهي بلاد الخيرات والبركات، حتى أطلق عليها اسم أرض الخمر والخمير، لكثرة ما فيها من بساتين العنب، والتي تصنع منها الخمور، أو مزارع القمح والشعير، والتي يصنع منها الخبز الذي يجعل في عجينه الخميرة، فترك كل هذا الخير وقدم إلى صحراء قاحلة لا طعام فيها ولا شراب. فكان جوابهم عدم العلم بالسبب. وهذا يدلنا على امتداد الفترة الزمنية بين هجرة اليهود الأوائل إلى المدينة وبين زمن وفاة ابن الهيّبان، حيث تتالت عدة أجيال من اليهود في استيطان المدينة حتى خفي على الأجيال المتأخرة سبب هجرة آبائهم الأوائل إلى المدينة، إذ لو كانت هجرتهم قريبة العهد لما خفي عليهم سببها. وهنا بيّن لهم ابن الهيّبان سبب هجرته وهجرة من هاجر معه وقتها من اليهود، وتحمّلوا كل هذا العناء والمشقة من أجل أمر واحد، وهو ما وصل إليهم من علم التوراة عن اقتراب خروج نبيّ آخر الزمان، كما وصل إليهم من

العلم: أنّ من أيّامه وأحواله أنه يضطر إلى ترك موطنه الأصلي ليهاجر إلى المدينة فيستوطنها، فأحبّوا إذ علموا ذلك أن يسبقوه إلى المدينة ليكون لهم قَصَب السبْق في الإيمان به ونصرته.

وبعد هذه المقدّمة، نرجع إلى الحديث الذي معنا، لنتابع ما جرى بين سلمة وبين جاره اليهودي. فاليهودي خرج إلى قوم سلمة من بني عبد الأشهل، وجعل يدعوهم إلى الإيمان باليوم الآخر ويذكّرهم بمشاهد القيامة. وكان العرب عموماً، وبنو عبد الأشهل من جملتهم، يؤمنون بوجود الله ﷻ، ويؤمنون بأنه المتفرّد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور، إلا أنهم كانوا لا يُفردونه بالعبادة، بل يعبدون معه أوثاناً يرون أن عبادتها تقرّبهم من الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]. فالأوثان عندهم، سواء كانت حجراً منصوباً أو تمثالاً منحوتاً أو شجرة مغروسة، ما هي إلا

(١) يونس: ٣١ ـ ٣٢.

رموز لمخلوقات عظيمة تركت أثراً في حياتهم، كالملائكة وصالحي البشر وغيرهم، فيظنّون أن عبادتها ـ من السجود لها أو تقديم القرابين ونحو ذلك ـ ترضي الله تعالى عنهم، لما لها عنده سبحانه من مكانة ومنزلة، فهذا كان شركهم. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾[1].

إلى جانب أنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث بعد الموت، بل يرونه مستبعداً حتى في القدرة الإلهية. لذلك لما سمعوا موعظة اليهودي، وما تضمّنتها من تذكيرٍ باليوم الآخر، استغربوا حديثه واستبعدوا ما ذكره، حتى أقسم لهم على وجود القيامة ووجود الجنة والنار، وأظهر لهم خوفه الشديد من نار الآخرة، بل تمنّى لو يفدي نفسه من نار الآخرة بتحمّل أعظم عذاب في الدنيا، وهو أن يُحمى عليه التنّور حتى يموت فيه.

ثم سأله بنو عبد الأشهل عن علامة تدل على صدق كلامه. فذكر لهم علامة عظيمة، ممّا علمه من كتب أهل الكتاب، وهي قرب ظهور نبي عظيم يدعو

---

(١) الزمر: ٣.

الناس إلى الإيمان باليوم الآخر، حتى أنه ذكر لهم الجهة التي يظهر منها هذا النبي، فأشار بيده إلى جهة الجنوب، أي جهة مكة واليمن، إذ أن مكة واليمن تقعان في جنوب المدينة المنوّرة. فكأن الناس تعجبوا من علمه حتى أنهم تشوّفوا لقرب ظهور ذاك النبي، فسألوه: ومتى يظهر حتى نراه؟ فتأمّلَ اليهودي في وجوه القوم حتى وقع بصره على سلمة راوي القصّة، وكان وقتها فتىً من أصغر الموجودين سناً، فقال اليهودي: إذا عاش هذا الفتى عمره حتى يبلغ سن الشيخوخة يدرك زمن النبي المنتظر.

وفعلاً صدق اليهودي في تنبّؤاته، فما هي إلا سنوات عديدة بعد هذه المحادثة حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً إلى العالمين. وكان اليهودي لا يزال على قيد الحياة، بل لم يزل مقيماً في محلّته إلى جوار بني عبد الأشهل. فسارع بنو عبد الأشهل مع من سارع من الأنصار إلى الإيمان بمحمّد ﷺ واتّباعه، وكيف لا، وعلامات صدقه أتتهم قبل بعثته. فهم كانوا يعرفون مكان بعثته وزمان بعثته بالتقريب، فجاء محمد ﷺ وفق الوصف الذي علموه من اليهودي، فبادروا إلى الإيمان به ولم يترددوا. إلا أن المفاجأة كانت حين أرادوا أن يبشّروا اليهودي بصدق تنبّؤاته ودقّة علمه، ويزفّوا إليه

بشرى ظهور النّبي الذي حدثهم عنه، فإذا باليهودي لم يفرح بالخبر ولم يبشّ لهم، بل ولم يؤمن حتى بالنبي ﷺ. فتعجبوا من أمره غاية التعجب، وسألوه وهم في غاية الدهشة: ويحك أيها اليهودي، كيف يفوتك الإيمان به ونحن لم نؤمن به إلا بسببك، فأنت وصفته لنا، وصفتَ لنا دعوته ومكان بعثته وزمان بعثته، حتى جاء وصفك منطبقاً عليه انطباقاً باهراً، فكيف تعمى عن كل هذا! فأجابهم بجواب غير مقنع، قال لهم: كل ما ذكرته لكم من الوصف الأول صحيح في حد ذاته ولا أُنكره، ولكن لا أُراه ينطبق على محمد ﷺ. فأدرك القوم حينها أن إعراض اليهودي عن الإيمان بمحمد ﷺ لم يكن إلا بسبب الحسد، وليس كما ادّعى من أن الصفات التي ذكرها لهم لم تنطبق على محمد ﷺ، كيف وقد جاءت منطبقة عليه، كأنّها حين فصّلت كانت تنظر إليه وترسُمُه.

فوائد الحديث

في حديث الباب فوائد كثيرة وعظيمة، وأكتفي منها بفائدتين:

الفائدة الأولى
البشارات بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل

من خلال ذكر اليهودي لصفات النبي المنتظر، وبيان زمان ومكان مبعثه بالتقريب، ومن خلال ما سنطّلع عليه في هذه السلسلة بعون الله تعالى من بشارات أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ، وإبراز صفات أخرى له، يتبيّن لنا مدى العلم الواسع والدّقيق من قبل أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً بصفات نبينا ﷺ.

ومن هنا جاء البيان القرآني لسعة معرفتهم بصفات النبي ﷺ وأيامه وأحواله أن شبّه معرفتهم به بمعرفتهم بأبنائهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا

يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾[1].

كما بيّن القرآن الكريم أنّ صفات النبي محمد ﷺ مسطورة في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ الآية[2].

بل ذُكر في التوراة والإنجيل حتى صفات أصحاب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾[3].

فقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هذا الرسول الذي أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهم أصحابه، وذكر من

---

(١) البقرة: ١٤٦.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) الفتح: ٢٩.

صفاتهم أنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: غلاظ على الأعداء المحاربين، وأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادّون ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى. ثم وصفهم بوصف آخر فقال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: تراهم وتشاهدهم ـ أيها العاقل ـ راكعين ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرّب إلى الله تعالى والظفر برضاه وثوابه. ثم وصفهم بوصف ثالث فقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: علامتهم وهو نور يجعله الله تعالى في وجوههم يوم القيامة، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباهم في الدنيا، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين. فالمقصود بهذه الجملة بيان أن الوضاءة والإشراق والصفاء يعلو وجوههم من كثرة الصلاة والعبادة لله، وليس المقصود أن هناك علامة معينة ـ كالدائرة التي تكون في الوجه ـ كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان. واختار سبحانه لفظ السجود، لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله تعالى.

واسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة، والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن. أي: ذلك

الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجري مجرى الأمثال، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله تعالى على نبيّه موسى عليه السلام.

ثم بيّن سبحانه صفتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ...﴾ أي صفة المؤمنين في الإنجيل، أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقاً ضعيفاً متفرّقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتدّ، وتُعجب جودتُه أصحاب الزراعة، العارفين بها.

فكذلك النبي ﷺ وأصحابه، كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا في ذلك ما بلغوا[1].

إلا أن أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً كانوا يتوقّعون أن يكون هذا النبي الخاتم من بني إسرائيل، فلما بُعث من العرب كفروا به من باب الحسد والغيرة، إذ لم تتقبل أنفسهم أن يمنح هذا الفضل العظيم لأمة غيرهم، وخاصة أمة العرب التي كانوا يزدرونها ويستخفون بها. قال تعالى ﴿...فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ

(١) انظر الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٩٢٥).

بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾[1].

قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي معرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة في التوراة على النبي ﷺ، فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبي المبعوث منهم لا من العرب، ملأ قلوبهم غيظاً وحسداً، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق[2].

إذاً استطاع اليهود أو بالأحرى علماء اليهود وكذا النصارى، أن يقنعوا أتباعهم أن الصفات الواردة في التوراة والإنجيل لا تنطبق على محمد ﷺ بل على غيره من الأنبياء.

ولكن إذا استطاعوا أن يحرّفوا الصفات ويحملوها

---

(١) البقرة: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٤٥).

على نبيّ غير نبيّنا ﷺ، فإن الله تعالى من رحمته بالعباد حتى لا يضلوا، أنزل لهم في التوراة والإنجيل اسم النبي الخاتم ﷺ، فسمّاه في الإنجيل باسمه أحمد ﷺ، وفي التوراة باسمه محمد ﷺ، وقد كان للنبي ﷺ عدة أسماء. فروى البخاري ومسلم عن محمد بن جُبَير بن مُطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يَمحُو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»(١).

أما تسميته في الإنجيل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾(٢).

وأما تسميته في التوراة، فروى كعب الأحبار، وكان من علماء اليهود الذين أسلموا، ما قرأه في التوراة، قال: «إني أجد في التوراة مكتوباً فِي السَّطْرِ الأَوَّلِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَبْدِي الْمُخْتَارُ، لَا فَظٌّ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤).
(٢) الصف: ٦.

وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ. وَفِي السَّطْرِ الثَّانِي: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أُمَّتُهُ الْحَمَّادُونَ، يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ، وَيُكَبِّرُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، رُعَاةُ الشَّمْسِ، يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ إِذَا جَاءَ وَقْتُهَا، وَلَوْ كَانُوا عَلَى رَأْسِ كُنَاسَةٍ وَيَأْتَزِرُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، وَيُوَضِّئُونَ أَطْرَافَهُمْ، وَأَصْوَاتُهُمْ بِاللَّيْلِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ كَأَصْوَاتِ النَّحْلِ»[1].

فهذه شهادة أحد علماء اليهود عمّا كان مسطوراً في التوراة في زمن الصحابة رضي الله عنهم من ذكر محمد ﷺ باسمه وصفته، ولو بقيت هذه الأسطر على حالها، لكانت أعظم برهان على نبوّة محمد ﷺ، ولكن حسد القوم لغيرهم، وخوفهم على رياستهم وزعامتهم، حملهم على أن يُعملوا يد التحريف في كل لفظ يصرّح بهذه الحقيقة.

فقد روى ابن سعد عن سعيد بن المسيّب قال: «قال العبّاس لكعب الأحبار: ما منعك أن تسلم على

(١) انظر شرح السنة للبغوي (٢١٠/١٣) وسنن الدارمي (١٠/١).

عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى أسلمت الآن على عهد عمر؟ فقال كعب: إن أبي كتب لي كتاباً من التوراة ودفعه إليّ، وقال: اعمل بهذا، وختم على سائر كتبه، وأخذ عليّ بحق الوالد على ولده أن لا أفضّ الخاتم. فلما كان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أر بأساً، قالت لي نفسي: لعل أباك غيّب عنك علماً كتمك فلو قرأته. ففضضتُ الخاتم فقرأته، فوجدت فيه صفة محمد وأمّته فجئت الآن مسلماً»[1].

ولكن على الرغم من التحريف المتعمّد، والذي قُصد منه طمس الحقيقة وتشويه صورتها حتى تلتبس على الناس، لا يزال بالإمكان ترائي تلك الحقيقة من وراء سحب التحريف التي غطوها بها. ولنبدأ بعون الله تعالى بذكر البشارات التي وردت في التوراة والإنجيل والتي تشير إلى اسم النبي محمد ﷺ.

(١) الطبقات الكبرى (٤٤٥/٧)، وقد حسَّن ابن حجر إسناد هذه الرواية في الإصابة في تمييز الصحابة (٦٤٨/٥).

البشارة الأولى

ورد في التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى، وتعرف اليوم باسم «العهد القديم»، في «سفر حجّي»: [الإصحاح الثاني]: «...لأنه هكذا قال ربّ الجنود، هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم، ويأتي **مشتهى كل الأمم** فأملأ هذا البيت مجداً، قال ربّ الجنود».

فهذا النصّ يتحدث عن نبوءة مستقبلية وهي: «أن شخصاً سيأتي ليملأ هذا البيت مجداً، وهذا الشخص هو **مشتهى كل الأمم**». هكذا وردت الكلمة «**مشتهى كل الأمم**» في النص العربي، وأما في النص العبري، وهو النص الأصلي المترجَم عنه، فقد ورد مكانها كلمة: «**محماد**» أو: «**حمدوت**» على حسب قراءتهم لها باللغة العبرية[1].

---

(١) انظر كتاب النبي (محمد ﷺ خاتم الرسل في التوراة والإنجيل) لقيس الكلبي (ص١٣٦).

فالنص اليهودي واضح في أن صاحب النبوءة اسمه مشتق من الحمد، وكانت الأمانة العلمية تقتضي أن يبقى الاسم عند الترجمة كما هو، ولا يُترجم، لأنه اسم علم، ولكن القوم قاموا بترجمة معنى الاسم، وبدلاً من أن يقولوا أن المنتظر هو «**من يحمده جميع الخلق**» كما هو معناها، إذا بهم يستبدلونه بكلمة «**مشتهى كل الأمم**» حتى يُبعدوا فهم القارئ عن أي ارتباط باسم محمد ﷺ.

وإذا تابعنا ما ورد في هذه البشارة، نجد الإشارة واضحة إلى المسجد الحرام الذي فضّله الله على المسجد الأقصى وجعله حرماً آمناً يأمن فيه الانسان والحيوان: «... ويأتي **مشتهى كل الأمم** فأملأ هذا البيت مجداً، قال ربّ الجنود. لي الفضة ولي الذهب يقول رب الجنود. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، قال رب الجنود. وفي هذا المكان أعطي السلام يقول ربّ الجنود».

البشارة الثانية

ورد في «العهد الجديد» الذي يضم الأناجيل التي اعترفت بها الكنيسة في جملة الكتاب المقدّس في «إنجيل يوحنا»: [الإصحاح الرابع عشر]: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب فيعطيكم **معزّيا** آخر ليمكث معكم إلى الأبد».

في هذا النص يوصي المسيح عليه السلام أحبابه باتباع وصاياه. ويخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث نبياً من بعده، وهو «**المعزّي**»، وأشار بقوله: «ليمكث معكم إلى الأبد» بأنه آخر الأنبياء. وورد في [الإصحاح السادس عشر] من الإنجيل نفسه: «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم **المعزّي**، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم».

هكذا ورد اسم نبي آخر الزمان «**المعزّي**» في النصّ العربي، وإذا رجعنا إلى النص الإغريقي المترجم عنه لوجدنا مكانه اسم: «**فارقليطوس**». وكلمة «**قليطوس**»

تعني: «المجد والحمد»، وكلمة «**فار**» تعني: «الأكثر»، فصار المعنى: «الأكثر مجداً وحمداً»، أي: «**الأحمد**». وهذا هو المستشرق الإيطالي الدكتور (نلّينو) يصرّح للشيخ عبدالوهاب النجار بأن اسم المبشّر به باليونانية: «**الفارقليطوس**» وتعني بالعربية: «الكثير الحمد»[1].

فالنص اليوناني واضح في أن صاحب النبوءة اسمه مشتق من «الحمد»، وكانت الأمانة العلمية تقتضي أيضاً أن يبقى الاسم عند الترجمة كما هو، ولا يُترجم، لأنه اسم علم، ولكن القوم قاموا بترجمة معنى الاسم، وبدلاً من أن يقولوا أن النبي المنتظر هو: «**الكثير الحمد**» كما هو معناها، إذا بهم يستبدلونه بكلمة: «**المعزّي**» حتى يُبعدوا فهم القارئ عن أي ارتباط باسم محمد ﷺ.

(١) موسوعة البحوث والمقالات العلمية (ص ٦).

البشارة الثالثة

وهذه البشارة في العهد القديم، وهي تشير بوضوح إلى وصف الرسول محمد ﷺ. وقد وردت في «سِفر إشعياء» من «العهد القديم»، وإشعياء هو أحد الأنبياء عند بني إسرائيل. فقد جاء في «سفر إشعياء» في [الإصحاح ٤٢] في أوله:

«هوَ ذا عبدي الذي أعضُدُه، مُختاري الذي سُرّتْ به نفسي، وضعتُ روحي عليه فيُخرجُ الحقَّ للأمم. لا يصيحُ ولا يرفعُ ولا يُسمِعُ في الشارع صوتَه. قصبةً مرضوضةً لا يَقصِفُ، وفتيلةً خامدةً لا يُطفىء، إلى الأمان يُخرجُ الحقَّ. لا يكِلُّ ولا ينكسِرُ حتى يضع الحقَّ في الأرض، وتنتظر الجزائرُ شريعتَه. هكذا يقول اللهُ الربُّ، خالقُ السماوات وناشرُها، باسطُ الأرض ونتائجِها، مُعطي الشعبِ عليها نسمةً والساكنين فيها روحاً. أنا الربُّ قد دعوتُك بالبِرّ، فأُمسِكُ بيدِك وأحفظُك وأجعلُك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتَحَ عيونَ العُمْيِ، لتُخرِجَ من الحبْس

المأسورين من بيت السِّجن الجالسين في الظلمة.

أنا الربُّ هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات. هُوَذا الأوَّليَّات قد أتَتْ، والحديثاتُ أنا مخبرٌ بها، قبل أن تنبُتَ أُعلِمُكم بها. غنّوا للربِّ أغنيَّةً جديدةً، تسبيحهُ من أقصى الأرض. أيها المُنحَدِرون في البحر ومِلؤُه والجزائِرُ وسكّانُها. لِتَرفَعِ البرّيةُ ومدُنُها صوتَها، الدّيار التي سَكَنها قِيدارُ. لتترنّم سكانُ سالِع، من رؤوس الجبال لِيَهتِفوا. لِيُعطوا الربَّ مجداً ويُخبِروا بتسبيحه في الجزائر. الربُّ كالجبّار يخرُجُ كرجلِ حُروبٍ، يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ، يهتِفُ ويصرُخُ ويَقوى على أعدائه. قد صَمَتُّ منذُ الدهرِ، سَكَتُّ تجلّدْتُ كالوالدة أَصيحُ أنفُخُ وأنخُرُ معاً. أُخَرّبُ الجبال والآكام، وأُجفّفُ كل عُشبها، وأجعلُ الأنهارَ يَبْساً وأُنَشّفُ الآجام، وأُسَيّرُ العُمْيَ في طريق لم يعرِفوها، في مسالكَ لم يدروها، أُمَشّيهم، أجعل الظُّلمة أمامهم نوراً، والمُعْوَجّاتِ مستقيمةً، هذه الأمور أفعلُها ولا أترُكهم. قد ارتدّوا إلى الوراء، يَخزى خزياً المُتَّكِلون على المنحوتات، القائلون للمسبوكات أنتُنّ آلهَتُنا».

فهذا النصّ يُشبِه أوّلُه إلى حدٍ كبيرٍ ما رواه كعب

الأحبار، وهو أحد علماء اليهود الذين أسلموا في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، عمّا قرأه بنفسه في التوراة: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَبْدِي الْمُخْتَارُ، لَا فَظٌّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا صَخَّابٌ فِي الأَسْوَاقِ...»[1]، فقارن بين هذا النص التوراتي الذي كان موجوداً أيام النبي محمد ﷺ، وبين النص التوراتي ذاته الموجود في أيامنا هذه: «هوَ ذا عبدي الذي أعضُدُه، مُختاري الذي سُرّتْ به نفسي، وضعتُ روحي عليه فيُخرجُ الحقَّ للأمم. لا يصيحُ ولا يرفعُ ولا يُسمِعُ في الشارع صوتَه...»، لترى كيف حُذف منه اسم النبي محمد ﷺ وبقي وَصفُه.

وقوله بعد ذلك: «قصبةً مرضوضةً لا يَقصِفُ، وفتيلةً خامدةً لا يُطفىء، إلى الأمان يُخرجُ الحقَّ. لا يكِلُّ ولا ينكسِرُ حتى يضع الحقَّ في الأرض، وتنتظر الجزائرُ شريعتَه». فهذا ينطبق أيضًا على نبينا محمد ﷺ الذي لم يكلّ ولم يضعف رغم المعوّقات والتحدّيات حتى بلّغ رسالة ربه ﷻ، ووطّأ لدولة العدل والأمن في جزيرة العرب.

وإذا تابعنا التأمّل بهذا النصّ، وجدنا أيضاً أن ما بعده يُشبه تماماً ما ورد عن الصحابي الجليل عبدالله

(١) انظر شرح السنة للبغوي (٢١٠/١٣) وسنن الدارمي (١٠/١).

ابن عمرو بن العاص ﷺ. فعبدالله كان يطالع التوراة والإنجيل ويقرأ فيهما، فروى البخاري عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «لَقِيتُ عَبْدَاللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ. قَالَ: «أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا». فإذا قارنت بين هذا الوصف للنبي محمد ﷺ الوارد في التوراة أيام الصحابة ﷺ، وبين النصّ التوراتي في أيامنا هذه لوجدت الشبه العظيم بين النصّين، ولعلمت أن المعنيّ بالنصّ التوراتي هو نبينا محمد ﷺ «أنا الربُّ قد دعوتُك بالبرّ، فأُمسِكُ بيدِك وأحفظُك وأجعلُك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتَحَ عيونَ العُمْيِ، لتُخرِجَ من الحبْس المأسورين من بيت السِّجن الجالسين في الظلمة».

ودليل آخر على أن الوصف الوارد في النص التوراتي هو لنبينا محمد ﷺ، قوله: «لِتَرفَعِ البَرّيَّةُ ومدُنُها صوتَها، الدّيار التي سَكَنها قِيدارُ، لتترنّم سكانُ سالِع، من رؤوس الجبال لِيَهتِفوا...»، فـ«قيدار» الوارد هنا هو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام، وهو الجدّ الأكبر لرسول الله محمد ﷺ، وهذا الأمر قد أقرّته التوراة، كما أقرّته المراجع التاريخية. فقد ورد في «سفر التكوين» (٢٥: ١٣): «وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم: نبايوت، بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبائيل، ومبسام». وقيدار بن إسماعيل تنسب له العرب المستعربة، والتي تسمى أيضًا بالعرب العدنانية، نسبة إلى عدنان الذي انحدر من صلب قيدار بن إسماعيل عليه السلام. وتؤكد المصادر التاريخية أن قيدار بن إسماعيل سكن وأقام في مكة المكرمة. فـ«قيدار» إذاً هو أحد أجداد النبي محمد ﷺ، والديار التي سكنها «قيدار» هي مكة المكرمة، وهي أيضًا الديار التي شهدت مولد رسول الله ﷺ.

أما «سالع» أو «سلع» فهو من أشهر جبال المدينة المنوّرة ويقع غرب المسجد النبوي. وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فرح أهل المدينة بقدومه واستبشروا به غاية الاستبشار: «لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال».

وانظر إلى الترتيب الزمني في سياق البشارة، حيث بدأ الحديث عن ديار «قيدار» وهي مكة المكرمة، ثم الحديث عن سكان «سالع» وهي المدينة النبويّة، لترى مطابقته لمسيرة رسول الله ﷺ التي بدأت في مكة ثم رَسَت في المدينة.

وعند النظر في بقية البشارة بعد الحديث عن سكان «سالع» نجدها تتحدث عن الحروب، وعن انتقام الله ﷻ من أعدائه: «الرب كالجبار يخرج كرجل حُروب، ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه...»، وهذا أيضًا يتفق مع سيرة رسول الله ﷺ في الجهاد والغزوات والفتوحات العظيمة التي بدأت بعد الهجرة إلى المدينة المنورة وبعد «ترنّم سكان سالع».

والنبي محمد ﷺ هو الذي أخرج الناس من ظلمة الشرك وعبادة الأصنام والمنحوتات إلى عبادة الله الواحد، وهو ما ينطبق عليه ما ورد في هذه البشارة: «أنا الرب هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات».

البشارة الرابعة

وهذه البشارة تتعلق بانتقال النبوّة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وهم: العرب.

جاء في «إنجيل متى» (٢١: ٤٢ ـ ٤٤): «قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البنّاؤون قد صار هو رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه».

وهذا النص صريح في إخبار المسيح عليه السلام لقومه بأن النبوّة، وهي المشار إليها بقوله: «ملكوت الله»، سوف تنزع منهم وتعطى لأمة أخرى تقوم بأداء حقها، فتنتج بها ثمار الهداية للناس، «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره». وفي النصّ إشارة أيضًا إلى نبيّ هذه الأمة، وأنه مؤيد من الله

تعالى، فلا يتمكن أعداؤه منه بل ينصره الله تعالى عليهم حتى يسحقهم .«ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه».

وانظر إلى المثل الذي ضربه المسيح عليه السلام عن الأنبياء، وكيف شبّههم بالبناء المتراصّ، وأن خاتم النبيين صار رأس الزاوية في هذا البناء: «الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية».

وقارنه بما ذكره نبيّنا صلى الله عليه وسلم لترى التوافق بين المثلين.

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[1].

ومما يدل أيضًا أن النبوّة انتقلت من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، ما ورد في «سفر التثنية» [الإصحاح ١٨، الفقرة ١٨]: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٥٣٥ ومسلم برقم ٦١٠١.

وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به». ففي هذا النص يخبر الله سبحانه وتعالى رسوله موسى عليه السلام أنه سيبعث لقومه من بني إسرائيل نبياً من وسط إخوتهم، أي من وسط إخوة بني إسرائيل، فظاهر هذه البشارة أن النبي المبشّر به ليس من بني إسرائيل، إذ لو كان منهم لقال: «أقيم لهم نبياً من أنفسهم». فالمراد بقوله: «من وسط إخوتهم» أي: من أبناء عمومتهم، وهذا معهود في التوراة أن يطلق لفظ الإخوة على أبناء العم. ودليله ما ورد في سفر التثنية: [الإصحاح ٢، الفقرة ٤]: «وأوصِ الشعب قائلا: أنتم مارّون بحدود إخوتكم بني عيسو، السّاكنين في سعير، وسيخافون منكم فاحذروا جداً» فهنا يأمر الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام أن يوصي قومه بني إسرائيل إذا مرّوا بديار إخوتهم بني عيسو أن يحذروا من إخافتهم، فسمّى بني عيسو إخوة لبني إسرائيل مع أنهم أبناء عمّهم، لأن عيسو وإسرائيل عليهما السلام أخوان، وأبوهما هو نبي الله إسحٰق عليه السلام، وأبناء عيسو هم أبناء عمومة لبني إسرائيل، ومع هذا قال لهم: «أنتم مارّون بحدود إخوتكم».

وكذلك هنا فأبناء إسحٰق وأبناء إسماعيل هم أبناء عمومة، لأن إسحٰق وإسماعيل عليهما السلام أخوان، وأبوهما هو نبي الله إبراهيم عليه السلام، ومن إسحٰق كان

إسرائيل عليه السلام، ومن إسماعيل عليه السلام كان قيدار، فأبناء إسرائيل هم أبناء عمومة لأبناء قيدار وهم العرب.

ويزيد المعنى وضوحاً قوله في تمام البشارة: «**وأجعل كلامي في فمه...**»، أي: أن هذا النبي المبشّر به سيكون الكتاب المنزّل عليه كلاماً يوحيه الله تعالى إليه بخلاف التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، إذ أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام مكتوبة في ألواح. وهذا الوصف لا ينطبق إلا على نبينا محمد ﷺ، لأن نبيّنا ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولمّا بلغ سنّ الأربعين أرسل الله تعالى إليه الملك جبريل عليه السلام، وهو في غار حِراء، فقال له: «اقرأ»، فقال نبينا ﷺ: «**ما أنا بقارئ**»، أي: أنا لا أعرف القراءة، فأعادها عليه ثانية وثالثة، والنبي ﷺ يقول له: «**ما أنا بقارئ**»، فقال جبريل عليه السلام:

«﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1]»، فأدرك النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام إنما أراد منه أن يردّد خلفه ما سيتلوه عليه، فكانت هذه

(١) العلق: ١ ـ ٥.

الآيات الخمس هي باكورة كلام الله تعالى، الذي ظلّ يتنزّل على النبيّ ﷺ طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، يتلوه جبريل أمام النبي ﷺ فيحفظه، ثم يقوم بعدها بتبليغه للناس كما سمعه. فهذا هو معنى قوله: «أجعل كلامي في فمه»، أي: يقوم محمد ﷺ بتبليغ كلام الله تعالى كما لقّنه من جبريل شفاهاً دون أن يقرأه من كتاب.

البشارة الخامسة

وهذه البشارة من العهد القديم تتحدث عن مكّة المكرمة وعن مناسك الحج في ربوعها.

ورد في «المزامير»: [المزمور ٨٤]: «طوبى للسّاكنين في بيتك أبداً يسبّحونك، سِلاه. طوبى لأناسٍ عِزُّهم بِكَ، طُرُقُ بيتِك في قلوبهم. عابرين في وادي البُكاء يصيّرونه ينبوعاً، أيضاً ببركات يغطون مورَة. يذهبون من قوّة إلى قوّة. يُرَوْنَ قُدّام الله في صهيون».

فهذا النصّ يتحدث عن قوم صالحين يعبُرون في «وادي البُكاء». وإذا قارنت بين هذه الكلمة: «وادي البُكاء» في النصّ العربي وبين النص الإنكليزي المترجَم عنه، لوجدت أنها كتبت في الإنكليزية بهذا اللفظ «valley of Baca» أي: «وادي بَكة». و«بَكّة» اسم للوادي، لأنها ابتدأت بحرف كبير، ومعروف في اللغة الإنكليزية أن الاسم العلم يبتدئ بالحرف الكبير.

والأصل أن اسم العلم لا يُترجم وإنما يُنقل كما هو، ولكنّ القوم تعمّدوا ترجمته حتى يصرفوا ذهن القارئ عن حقيقته، فترجموه إلى: «وادي البُكاء»، وليس في النصّ الإنكليزي أي ذكر للبُكاء لا من قريب ولا من بعيد.

فإن سألت عن «وادي بَكّة»، كما ورد في النص الإنكليزي، أين يقع؟ فالجواب عندهم: أنّ قاموس الكتاب المقدّس لم يستطع تحديد أين توجد «بَكة»، وكل ما ذكره عن موقعها هذه العبارة: (ربّما يكون هذا مكان يمرّ به الحجّاج).

وأما الجواب عندنا، فإن بَكة هي اسم من الأسماء التي أطلقها الله ﷻ في القرآن الكريم على مكّة المكرمة[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[2]، وبهذا يتّضح أن المقصود بـ«وادي البُكاء» هو وادي مكّة المكرّمة.

كما أن سياق النّص ينطبق على مكّة المكرّمة وبيت الله الحرام فيها. فقوله «طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يسبّحونك»، لا ينطبق إلا على بيت الله الحرام في

---

(١) أم لم يعرفوا رسولهم (٤٩/١).

(٢) آل عمران: ٩٦.

مكّة المكرمة. إذ لا يخلو هذا البيت المبارك، في أي ساعة شئت من ليل أو نهار، من ذاكر لله ﷻ، إما طائفون يطوفون حول البيت ويذكرون الله تعالى، أو مصلون يتجهون إليه ويذكرون الله تعالى.

وقوله: «طوبى لأناسٍ عِزّهم بك، طُرُق بيتِك في قلوبهم»، يشير إلى الشوق الذي يعتلج في قلوب زوّار هذا البيت، فلا يكادون يفارقونه حتى يحنّوا اليه. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يقضون منه وطرًا، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه»[2].

وأما قوله: «عابرين في وادي البُكاء يصيّرونه ينبوعاً أيضاً، ببركات يغطون مورة. يذهبون من قوة إلى قوة يُرون قدام الله في صهيون»، ففيه إشارة إلى مناسك الحج، وما فيها من طواف، وسعي من مكان إلى مكان، في الأرض المقدّسة. فكلمة (صهيون) تعني: (المكان المقدّس) أو: (المجتمع الديني الخالص)، كما ورد في القاموس الإنجليزي للكتاب المقدّس[3].

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير (٤١٢/١).

(٣) أم لم يعرفوا رسولهم (٤٩/١).

فهذه بعض البشارات الواردة في التوراة والإنجيل، والتي تشير بوضوح إلى اسم نبيّنا محمد ﷺ كما تشير إلى وصفه ووصف شريعته وأحواله.

والبشارات في هذا الباب كثيرة جداً، وقد ألّفَت فيها كتب كثيرة، وما ذكرتُه هنا فهو لمجرّد الإشارة والتنويه، ومن أحب التوسّع فليرجع إلى المصادر.

الفائدة الثانية
الحذر من سوء الخاتمة

ظهر لنا من حال هذا اليهودي أنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، ومؤمناً بالرسل: مؤمناً بموسى عليه السلام والتوراة التي أنزلت عليه، ومؤمناً بالنبي الذي سيبعث في آخر الزمان. كما ظهر لنا من حاله أنه كان يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، إذ دعا بني عبد الأشهل إلى الله تعالى وخوّفهم من عذابه. وأخيراً ظهر لنا جليّاً خوف اليهودي من عذاب الله تعالى لدرجة أنه تمنّى أن يُبتلى بنار الدنيا لينجو من نار الآخرة.

ومع كل ما ذكرنا من إيمان اليهودي ودعوته وخوفه، نراه قد خُتم له بسوء الخاتمة، إذ لم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم لمّا بُعث، بل كفر به وصدّ النّاس عنه. في حين أن سلمة وقومه كانوا مشركين بالله تعالى ولا

يؤمنون بالآخرة، ومع هذا خُتم لهم بحسن الخاتمة، إذ بادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ لما بُعث، وآمنوا بما جاء به من التوحيد والنبوّة والبعث بعد الموت.

لذلك نرى أن الإنسان لا يَعلم ما يُختم له في آخر حياته. فقد روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١).

ولكن ينبغي الإشارة في هذا الحديث إلى أمر مهم وهو: أن هذا الرجل الذي عمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم خُتم له بعمل أهل النار، لا بدّ وأنه كانت له أعمال مُشينة في الباطن لم يطّلع عليها الناس كانت سبباً في سوء خاتمته، وأن الرجل الذي عمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم خُتم له بعمل أهل الجنة، لا بدّ كذلك أنه كانت له أعمال صالحة في الباطن لم يطّلع عليها الناس كانت سبباً في حسن

(١) صحيح مسلم برقم ٦٩١٠.

خاتمته. ويدل على هذه الإشارة ما رواه سَهْل بن سَعْدٍ السَّاعِدِي رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١).

قال ابن رجب رحمه الله: (قوله «**فيما يبدو للناس**» إشارةٌ إلى أنَّ باطنَ الأمر يكونُ بخلافِ ذلك، وأنَّ خاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطّلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفيّة توجب سُوءَ الخاتمة عند الموت. وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النَّارِ وفي باطنه خصلةٌ خفيّةٌ من خصال الخير، فتغلب عليه تلكَ الخصلةُ في آخر عمره، فتوجب له حسنَ الخاتمة)(٢).

فمن هذا يتبيّن لنا: أن المرء إذا كان صالحاً في ظاهره وباطنه فلا يُختم له بسوء الخاتمة، وكذا إن كان فاسداً في ظاهره وباطنه فلا يُختم له بحسن الخاتمة، فسهام الضلال والهداية لا تصيب الناس خبط عشواء بلا حكمة أو سبب، بل لها أسبابها وسننها التي لا تتخلّف،

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٠٧، ومسلم برقم ٦٩١١.

(٢) جامع العلوم والحكم، محقق (٦/٣٠).

فمن أخذ بأسباب الهداية حسنت خاتمته ونجا، ومن أخذ بأسباب الضلالة ساءت خاتمته وهلك.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ الآيات[1]. أي: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، بأن أنفق من ماله في وجوه الخير، ﴿وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾: المحارم والمعاصي، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي: وأيقن بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي: فسنهيّئُه للخصلة التي توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال، بأن نوفّقه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى السعادة. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله فلم يؤدِ حقوق الله تعالى فيه، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ أي: واستغنى عن ثواب الله تعالى، وتطاول على الناس بماله وجاهه، وآثر مُتَع الدنيا على نعيم الآخرة، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ أي: وكذب بالخصلة الحسنى التي تشمل الإيمان بالحق، وبيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ أي: فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى العسر والمشقّة والشدّة، فتكون عاقبته فرطاً، ونهايته الخسران والبوار. والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها، وقد

---

(١) الليل: ٥ ـ ١٠.

وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هي جماع كل خير، وأساس جميع الفضائل: وصفهم بالسخاء، وبالخوف من الله تعالى، وبالتصديق بكل ما يجب التصديق به، ورتّب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى... التي تنتهي بهم إلى الفوز والسعادة. ووصف أيضاً أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات، هي أساس البلاء ومنبع الفساد، ألا وهي: البخل، والغرور، والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به... ورتّب سبحانه على ذلك تهيئتهم للخصلة العسرى، التي توصلهم إلى سوء المصير، وشديد العقاب...»[1].

(١) انظر الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ٤٥٢٠).

أسباب سوء الخاتمة

ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى لا يصرف قلب عبده عن الهدى ويختم له بسوء الخاتمة إلا إذا قام العبد بأعمال مُشينة تودي به إلى هذا المصير. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[1]. والزيغ: هو الميل عن طريق الحق، أي: فلما أصرّوا على الميل عن الحق مع علمهم به، واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ في قلوبهم، أمال الله تعالى قلوبهم عن قبول الهدى، لإيثارهم الباطل على الحق والضلالة على الهداية[2].

ويستحسن بنا أن نذكر بعض الأسباب التي تودي بأصحابها إلى سوء الخاتمة للتحذير منها.

---

(١) الصف: ٥.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٤١٨٤).

كثرة المعاصي

المؤمن قد يعصي الله ﷻ ويقع في كبائر الذنوب، إلا أنه سُرعان ما يبادر إلى التوبة فتمحو ما سلف من ذنوبه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمرّوا على المعصية ويصرّوا عليها غير مقْلِعين عنها، ولو تكرّر منهم الذنب تابوا عنه. كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده: حدثنا إسحٰق بن أبي إسرائيل وغيره قالوا: حدثنا أبو يحيى عبدالحميد الحِمَّانيّ، عن عثمان بن واقد عن أبي نُصَيْرَةَ، عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[2]، ورواه أبو داود

---

(١) آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني في (ضعيف أبي داود) برقم ٢٦٧.

والترمذي والْبَزَّار في مسنده، من حديث عثمان بن واقد ـ وقد وثقه يحيى بن معين ـ به، وشيخه أبو نصيرة الواسطي واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد وابن حبان، وقول علي بن المديني والترمذي: (ليس إسناد هذا الحديث بذاك)، فالظاهر إنما هو لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر الصديق، فهو حديث حسن، والله أعلم»[1].

إذاً الإنسان إذا وقع في الكبائر ثم تاب منها مباشرة لا يعتبر مُصرّاً ولو تكررت منه، أما إذا وقع في الكبائر ثم لم يتب منها، بل أصرّ عليها ولم يرعوِ حتى طال عليه العهد، فهذا يُخشى عليه من سوء الخاتمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾**»[2]. فهذا الحديث

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٢٥).

(٢) رواه أحمد، والترمذي وصحّحه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وحسّنه الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) برقم ٣١٤١.

يؤكد معنى الحديث الأول وهو أن التوبة بعد الذنب تمحو أثره، في حين أن تكرار الذنب بعد الذنب من غير أن يتخلّله توبة يؤدي في نهاية المطاف إلى تكوين غشاء أسود يغطي قلب صاحبه فيحجب عنه قبول الهداية. وقوله ﷺ: «. . .**فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

قال شيخي أبو بكر الجزائري ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ «أي: ما الأمر كما يدّعون من أن القرآن أساطير الأولين، وإنما ران على قلوبهم أي غشّاها وغطّاها أثر الذنوب والجرائم فحجبها عن معرفة الحق وقبوله»[2].

ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما رواه مسلم عن حُذَيْفَة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ**

---

(١) المطففين: ١٠ ـ ١٤.

(٢) أيسر التفاسير، للجزائري (٣٧٨/٤).

الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَي قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَي قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1].

فهذا الحديث شبّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض عيدان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحد، أي كما ينسج الحصير عودًا عودًا، كذلك تُعرض الفتن، وهي الأهواء والشهوات المحرّمة، على القلوب فتنة بعد فتنة. «**فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها**» أيْ: أيُّ قلب سقط في الاختبار وتَمَكَّنَتِ الفِتْنَةُ منه، بأن وقع في شهوة محرّمة أو اقتنع بفكرة ضالة «**نُكِتَ في قلبه نُكْتة سوداء**»، أي تركت الفتنة أثرها في قلبه كنقطة سوداء على مرآة بيضاء. «**وأي قلب أُنْكرَها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء**» أي: أما القلب الآخر الذي عُرضت عليه الفتنة فتأبّاها ورفضها، فتبقى صفحة قلبه بيضاء كما كانت بل تزداد نصاعة، وهذا هو القلب الصالح السليمُ، الذي سلم من أوضار الشرك والبدعة، ومن أدران الموبقات والكبائر.

---

(١) مسلم برقم ٣٦٨.

وحينئذ وبعد سلسلة من التجارب والاختبارات تَصيرُ القلوب على نوعين: قلب صالح سليم طيّب «**أبيض مثل الصفا**»، والصفا هو الحجر الأملس الذي لا يَعْلَقُ به شَيْءٌ، وكذلك القلب السليم لا تَعْلَقُ به فِتْنَةٌ، ولذا قال: «**فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامت السموات والأرض**». وأما الآخر فداخلته الفتن حتى تراكمت النقاط السوداء على صفحة قلبه البيضاء الأصل فغطّتها بالسواد، وصار قلبه «**أسود مُرْبَادًّا**» أي: شديد السواد. «كالكوز مُجَخيًا»، أي: كالكوب المقلوب على فمه، إذ سكب ما في داخله من الإيمان والنور، وامتلأ محلهما بالأهواء والشهوات، فمهما تواردت على هذا القلب المواعظ والعبر لا ينتفع بها، لأن الكوب المقلوب لا يدخل فيه ما هو خارج عنه ولا يخرج منه ما هو داخل فيه. وكذلك صاحب القلب المنكوس على وجهه، فلا الظلمات المتراكمة فيه بسبب الأهواء والشهوات تخرج منه، ولا أنوار الهداية تجد منفذاً للدخول فيه، بل يصبح صاحب هذا القلب أعمى لا يرى الحق حقاً فينشرح له صدره، ولا يرى الباطل باطلاً فيشمئز منه قلبه، بل تنقلب الموازين عنده على حسب ما يمليه عليه هواه، ولذلك قال ﷺ: «**لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه**». وصاحب هذا القلب غالباً ما يُختم له بسوء الخاتمة.

قال عبدالعزيز بن أبي روَّاد: «حضرت رجلاً عند

الموت يُلَقَّنُ لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافرٌ بما تقول، ومات على ذلك. قال: فسألتُ عنه، فإذا هو مدمنُ خمرٍ. فكان عبدالعزيز يقول: اتقوا الذنوب، فإنَّها هي التي أوقعته»[1].

❋ ❋ ❋

الكبر

ومن المعاصي التي تسبّب الختم على القلوب وتنتهي بصاحبها إلى سوء الخاتمة: الكبر.

ودليل ذلك من الكتاب: قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[2] أي: سأمنع فَهْم الحجج، وفَهْم الأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي، قلوبَ المتكبّرين عن طاعتي، والذين يتكبّرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق حرمهم الله تعالى الفهم.

---

(١) جامع العلوم والحكم، محقق (٦/٣٠).

(٢) الأعراف: ١٤٦.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ هذا وصف لتكبّرهم في الأرض بغير الحق، وبيان للأسباب التي من أجلها صُرفوا عن فهْم آيات الله تعالى، وهو أنهم كانوا مهما يبصروا من الحجج التي تهدي إلى الحق وترشد إلى الخير تراهم يعرضون عنها ولا يؤمنون بها، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ وكذلك كانوا إذا عرفوا طريق الصلاح والاستقامة والسّداد لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ في حين أنهم كانوا يعرفون طريق الضلال والغواية ويميّزونه ومع هذا يسيرون فيه ويسلكونه. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: ذلك المذكور، من حرمانهم من فهم آيات الله تعالى والانتفاع بها، كائن بسبب ما كان منهم من تكذيبٍ بآيات الله التي جاءتهم بالحق البيّن، وغفلتهم عن تدبّرها.

فالذي حمل هؤلاء على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها هو: الكِبْر الذي في قلوبهم، لأن الكِبْر كما عرّفه النبي ﷺ هو دفع الحقّ وردّه. كما روى عَبْداللَّهِ بْن مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ**

النَّاسِ»[1]. فبَطَر الحق هو: دفعه وردّه، وغَمْط الناس هو: ازدراؤهم واحتقارهم. فالمتكبّر هو من يسمع الحق ويتبيّنه ثم مع هذا يردّه ويعرض عنه لاستعلائه على الناس، فيبتليه الله تعالى بأن يحرمه فهم القرآن والانتفاع به عقوبة على ردّه للحق وعدم انصياعه له. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2].

والذي يحمل الإنسان على التكبّر وردّ الحق هو: مرض في قلبه من هوى أو شهوة، والهوى غالباً ما ينجُم عن الحسد. كما جرى لليهودي جار سلمة بن سلامة، حيث كفر بمحمد ﷺ حسداً له. فاليهودي عرف أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر الذي ذكر في كتاب التوراة، ولكنه أدرك أن النبوّة شرف عظيم ليس بعده شرف سيما أنها آخر النبوّات، وعَظُمَ عليه أن يحظى العرب بهذا الشرف الكبير ويُحرم منه قومه من بني إسرائيل، فحمله حسده للعرب وأنَفَتُه من اتباعهم على أن ينكر الحق الأبلج بعدما تيقّنه.

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٥.

(٢) الأنعام: ١١٠.

وهذا ما حصل أيضًا لكثير من العرب حيث كفروا بمحمد ﷺ مع أنه منهم، ولكن منعتهم العصبيّة للقبيلة أو حتى لبطن من بطونها من أن يعترفوا بهذا الشرف لغيرهم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَحَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزّهْرِيّ أَنّهُ حُدّثَ: أَنّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الثّقَفِيّ حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلّي مِنْ اللّيْلِ فِي بَيْتِهِ. فَأَخَذَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ، وَكُلّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ. فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتّى إذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطّرِيقُ فَتَلَاوَمُوا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَآكُمْ بَعْضُ سُفَهَائِكُمْ لَأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمّ انْصَرَفُوا. حَتّى إذَا كَانَتْ اللّيْلَةُ الثّانِيَةُ عَادَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إلَى مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتّى إذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوّلَ مَرّةٍ، ثُمّ انْصَرَفُوا. حَتّى إذَا كَانَتْ اللّيْلَةُ الثّالِثَةُ أَخَذَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتّى إذَا طَلَعَ الفجر تَفَرّقُوا، فَجَمَعَهُمْ

الطّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا نَبْرَحُ حَتّى نَتَعَاهَدَ أَلّا نَعُودَ، فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ تَفَرّقُوا. فَلَمّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ ثُمّ خَرَجَ، حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمّدٍ. فَقَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، وَاَللّهِ لَقَدْ سَمِعْت أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا، وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْت أَشْيَاءَ مَا عَرَفْت مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا. قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَاَلّذِي حَلَفْت بِهِ. قَالَ: ثُمّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ مَا رَأْيُك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمّدٍ؟ فَقَالَ: مَاذَا سَمِعْت! تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشّرَفَ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتّى إذَا تَحَاذَيْنَا عَلَى الرّكَبِ وَكُنّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قَالُوا: مِنّا نَبِيّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ السّمَاءِ، فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ! وَاَللّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا، وَلَا نُصَدّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ»[1].

فأبو جهل يعترف في هذا الحديث أن سبب كفره

(١) الروض الأنف (٢/٨١).

بمحمد ﷺ هو حسده لقوم النبي ﷺ أي لبني عبد مناف من أن يفوزوا بهذا الشرف العظيم دون قومه من بني عبد الدار، مع أن بني عبد مناف وبني عبد الدار بطنان لقبيلة واحدة وهي قريش.

الخاتمة

لقد أفادنا حديث سلمة أمراً عجيباً من العلم الذي كان عند اليهود ومع هذا لم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا به، فلذلك على الإنسان العاقل أن لا يغترّ بعلمه ولا بعمله الصالح بل يبقى في خوف وتضرّع إلى الله تعالى حتى يتقبل منه عمله ويوفقه إلى حسن الخاتمة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾: «أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله

(١) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٤٨٠).

خائفون منه، وجِلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخبارًا عن مريم عليها السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾[1]، أي: أيقنت أن ما كان فإنّما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو: إن كان أمرًا فممّا يحبه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو ممّا يكرهه ويأباه، وإن كان خبرًا فهو حق. كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لا نظير له ولا كفء له. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يُعطون العطاء وهم خائفون ألا يُتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: «حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مِغْوَل، حدثنا عبدالرحمٰن بن سعيد بن وهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله

---

(١) التحريم: ١٢.

ﷻ؟ قال: «**لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدّق، وهو يخاف الله** ﷻ»[1]. وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك ابن مِغْوَل به بنحوه، وقال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدّقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾»[2].

وكان نبينا ﷺ، وهو أعظم الناس علماً وعملاً، يمتلئ قلبه بالخوف من الله تعالى. فقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: «**يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك**». قلتُ: يا رسول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخاف؟ قال: «**نعم وما يؤمِنّي أيْ عائشة، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء**»[3].

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وأن يُحسن خاتمتنا إنه سميع مجيب.

---

(١) المسند برقم ٢٦٠٠٥.

(٢) سنن الترمذي برقم ٣١٧٥، وقد صحّحه الألباني في (صحيح الترمذي) برقم ٢٥٣٧.

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٢٩٠، وصحّحه الألباني في (ظلال الجنة) برقم ٢٣٣.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الحديث	٩
شرح الحديث	١١
فوائد الحديث	٢٣
❍ الفائدة الأولى: البشارات بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل	٢٣
❍ الفائدة الثانية: التحذير من سوء الخاتمة	٥١
الخاتمة	٦٩